

القياد في نظام الإدارة الاستعمارية التواطؤ، التعسف والخيانة (1867-1962)

د/ كريم ولد النبية

قسم العلوم الانسانية جامعة سيدي بلعباس

صحيح أن الكتابة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر فرضت مصطلحات خاصة قد تبدو عربية وبالرغم من ذلك فقد دخلت القاموس الفرنسي، ويعتبر هذا الأمر محير فعلاً! هناك فرق في الترجمة بين «قايد» في نظام القيادة قبل 1867 و«قايد» النظام البلدي وهو موظف أي «مساعد أهلي» بعد عام 1919، أحاول أن أرسخ في كتاباتي التاريخية هذا الفرق الاصطلاحي في شكله اللغوي الأول بحرف (ق) والثاني بحرف (ف). أعتقد أنه من أبرز التحديات التي يواجهها الباحث في التاريخ على وجه الخصوص هو امتلاك الرؤية النقدية التي يحتاجها أي جهد بحثي والابتعاد عن نقل المعارف الجاهزة والإجابات الشائعة التي في كثير من الأحيان لا تلائم الواقع. (سوف أوسع هذه المقاربة في مداخلتني من خلال الارشيف).

1- مفهوم نظام القِيَادِيَّة « Caïdat » :

نظام المكاتب العربية تنظيم محلي فرض نفسه على جيش الاحتلال منذ بداية عمليات الغزو كنظام ملء الفراغ، ينتهي لا محالة في يوم أو آخر. وهذا ما يفسر استنجد السلطة الفرنسية بالنظم الإدارية السابقة بهدف تحقيق أهدافها الآنية كتموين جيش، واستتباب الأمن ومنها بن قانة، بن عيسى، المقراني، والزين.... فهي تنظيم مؤقت، وشرعت في التخلص منه بعد أن حققت غايتها.

ابتكرت السلطة الفرنسية في الجزائر منذ عام 1866 تنظيمًا محليًا فريدًا من نوعه، لا نجد له مثال في أي من مستعمراتها. وضعت سلطة الحل و العقد في يد الجيش والمستوطن والإدارة واعتقدت أنها وجدت الحل بتوزيعها للأدوار. أما «الجزائري» فلا محل له من الإعراب. مما يدل أن الجزائر كانت ميدانًا حقيقيًا للتجارب الفرنسية المختلفة.

كان نظام القِيَادِيَّة هذا يتكون من مزيج ثلاثة نظم إدارية محلية مختلفة في الجزائر خلال فترة بداية الاحتلال، وعرض هذه النظم ضروري لفهم المشروع الإداري المحلي الذي أحدث سنة 1866.

- أثر إدارة قبائل المخزن (قبائل الدوائر والزماله وقبيلة الغرابه/المزاري). وقسم السناتوس كونست قبائل الدوائر إلى:العوامر،اولاد بوعامر، أولاد عبد الله و العمارة.علمًا أن قبائل الزماله كانت تعتبر أهم وأكبر قبيلة مخزن من حيث الحجم والعدد.

- أثر إدارة الشيوخ : في المناطق البعيدة تقريبا عن سيطرة إدارة البايلك،وقلما نجد مثل هذا التنظيم المحلي في الغرب الجزائري ما عدا منطقة الجنوب الغربي.(الذي نسميه بقبائل المخزن في الشرق ليس هو تلك القبائل المسلحة المكلفة بجمع الضرائب كما هو الحال في غرب إيالة الجزائر،بل هم أولئك الأفراد الذين امتازوا باستغلال أراضي البايلك التي كانت تزيد عن ثلثي الأراضي الزراعية).

أضيف في هذا الموضوع أن قبائل المخزن في بايلك الغرب كانت تختلف عن قبائل المخزن في بايلك الشرق،لأن الذي نسميه بقبائل المخزن في الشرق ليس هو تلك القبائل المسلحة المكلفة بجمع الضرائب كما هو الحال في غرب إيالة الجزائر،بل هم أولئك الأفراد الذين امتازوا باستغلال أراضي البايلك التي كانت تزيد عن ثلثي الأراضي الزراعية.

مخزن بايلك الغرب اختلف تاريخيًا مع مخزن بايلك الشرق حتى من جانب التركيبة الاجتماعية،لأنه لم يكن يمتاز بامتلاكه على قاعدة شعبية تعظم شأنه في نظر «السلطة التركية» وعليه فإن قبائل المخزن في بايلك الغرب لم يكن بإمكانهم الاختلاط مع قبائل الرعية أو المغامرة بقيادة إحدى تمرداتهم،وهذا ما يفسر بروز قيادات الطرق الصوفية في مواجهة السلطة الرسمية على غرار الدرقاوية.

- أثر إدارة الشيوخ : في المناطق البعيدة تقريبا عن سيطرة إدارة البايلك،وقلما نجد مثل هذا التنظيم المحلي في الغرب الجزائري ما عدا منطقة الجنوب الغربي.كان هذا التنظيم كثير الانتشار في وسط وشرق الجزائر،وأهم ما يميزه هو الحكم الوراثي للشيوخ المنحدرين من العائلات الكبرى (الخيمة الكبيرة).

- أثر إدارة الأمير عبد القادر:الذي نجح في تأسيس إدارة محلية بجذورها الاجتماعية والثقافية. فقد جمع القبائل في وحدة إدارية اسمها «خليفة»،تنقسم إلى عدة أغاليك،واعترف له أعدائه : « بدقة هذا التقسيم و تلائمه مع مصالح الجميع »¹.

بالموازاة مع ما أسسه الأمير من وحدات إدارية،على رأس كل واحدة «خليفة»،ظهرت ما عرف باسم المقاطعات العسكرية (Divisions)،التي قُسمت إلى قَسَمَات (Subdivisions)،والتي

فُسِّمَتْ بدورها إلى دوائر عسكرية (Cercles). حافظت الإدارة العسكرية على المصطلحات المحلية السابقة بعدما أفرغتها من محتواها الأصيل فأُسِّست الشيخات (Cheikhats)، والأغاليك (Aghaliks).

نفس المبدأ تم تطبيقه على السلم الإداري بالنسبة للشيخ أو الخليفة، القايد والأغا، الشيء الجديد الذي تم إضافته هو منصب البشأغا في أعلى السلم الإداري. ولم تترك السلطة الاستعمارية للسكان المحليين حق المبادرة وراثية كانت أم سياسية بمبدأ الاتفاق الجماعي أو المبايعة، بل راحت تُعين على رأس كل أغاليك (قبيلة أو فرقة) قايد أو أغا أو خليفة حسب حجم الوحدة الإدارية. يخضع مباشرة للسلطة العسكرية، لكن له صلاحيات واسعة نلخصها في ما يلي :

- جمع الضرائب العربية والاحتفاظ بالعشر (10/1)، وفقاً للأمرية المؤرخة² في 17 جانفي 1845.
- له صلاحيات قضائية على السكان الجزائريين، والحقيقة أنها صلاحيات شرطة وليس قاضي. تتمثل في فك النزاعات بين الأفراد وتسليم المجرمين إلى المكتب العربي، وكان له الحق في فرض الغرامات التي لا تتجاوز 25 فرنكاً.

مصطفى ابن ابراهيم الشخصية المشهورة في تاريخ الشعر الملحون، تقلد منصب خليفة أولاد سليمان عام 1848، وهو الذي ألقى القبض على محمد بن عبو المدعو بوسيف وسلمه إلى السلطات الفرنسية. كما تولى منصب قايد أولاد سليمان، ثم عيّن في نفس المنصب على دوار أولاد بالغ في منطقة رأس الماء وتلاغ، لأن هذه القبيلة يقول عبد القادر عزة رفضت أداء الضرائب³.

تسأل الكثير من الباحثين كيف يمكن لقايد أولاد سليمان «مصطفى بن ابراهيم» من قبيلة بني عامر في منطقة سيدي بلعباس أن تكون له صلاحيات قضائية ؟

هذا ما جاء على كل حال في كتاب عبد القادر عزة. الأكد أن مرسوم 28 فيفري 1841 نتزع من سلطة القاضي الإسلامي أحكام الجنایات والجنح وجعلها من اختصاص محكمة الاستئناف الفرنسية.

لكن نابليون الثالث أعاد للمحاكم الإسلامية. ما جُرد من صلاحياتها فأعاد تكوين «المجلس الشرعي» الذي ينظر في دعاوي الاستئناف. لكن هذه السلطة القضائية لم تكن أبداً في يد القايد. ثم هذا التدبير لم يدم، إذ عارضته بشدة السلطات المدنية والعسكرية في الجزائر، خوفاً من تقلص سيطرتها على الجزائريين وإفلاتهم من الرقابة القضائية، فعاد الحال إلى ما كان عليه بموجب مرسوم 31 ديسمبر 1859. وعليه أعتقد أن القول بأن القايد مصطفى ابن ابراهيم شغل

منصب قايد وقاضي غير صحيح.

أريد أن أركز هنا: على الفرق بين «قايد» نظام القيادية قبل 1867 و«قايد» النظام البلدي، ولهذا أحاول أن أرسخ هذا الفرق الإصطلاحي في شكله اللغوي الأول بحرف (ق) والثاني بحرف (ف) ، وكذلك في شكله الاصطلاحي من خلال ما سوف أعرضه في هذه المداخلة. قايد المكاتب العربية كانت له صلاحيات أكثر من قايد النظام البلدي، الذي هو موظف بسيط يتصرف في شؤون الدوار.

- له حق فرض العقوبات، حسب تقسيم سلمي ثابت ويحتفظ بـ ثلاثة أعشار (10/3) من مبلغ العقوبة.

[?] - البشأغا: له حق فرض عقوبات لا تتجاوز 100 فرنك.

[?] - الأغا: « » « » « » « » « » 50 فرنك.

[?] - الشيخ أو القايد « » « » « » « » 25 فرنك.

[?] - له حق السخارة في جميع العمليات الزراعية كالحرث، الحصاد ونقل الحبوب. وجردت منه هذه الضريبة سنة 1850.

- له حق «البرنوس» وهي ضريبة قاسية يدفعها السكان المحليون عند تعيين قايد أو شيخ جديد عليهم. ولم تلغى هذه الضريبة من الناحية الرسمية على الأقل إلا في سنة 1863، لكنها ظلت سائدة رغم ذلك بطريقة غير رسمية.

هكذا نلاحظ أن الإدارة محلية الاستعمارية، حافظت في البداية على النظام الإداري المحلي السائد بهدف تحقيق أهدافها الآنية كتموين جيش، واستتباب الأمن والقضاء على المقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر الذي اعتبر «أخطر» «مقاوم» يهدد الإستراتيجية الاستعمارية الحديثة. لكنها حافظت على كل ذلك بعدما أفرغتها من خصوصياتها الحضارية، فهذا النظام الإداري المحلي لم يعد جزائرياً إسلامياً كما كان بل أصبح فرنسياً استعمارياً. ثم إن هذا التنظيم المؤقت ما هو إلا نظاماً ظاهرياً فقط، يخفي ورائه السلطة الاستعمارية الحقيقية التي كانت تمثلها سلطة المكاتب العربية.

هكذا فإن نظام القيادية عبارة عن وحدات إدارية أوجدتها السلطة العسكرية الفرنسية كحل مؤقت، لإدارة السكان الجزائريين المنتشرين في شكل قبائل أو فصائل من القبائل

بتعبير أدق في المناطق العسكرية التي يسكنها «الجزائريون» فقط دون غيرهم وكانت تمثل آنذاك الجزء الأكبر من البلاد.

فضلت تسميته بنظام القيادية (CAÏDAT)، لأن هذا المصطلح البسيط في حجمه، تحول إلى «مفهوم» يستعمل في اللغة الفرنسية و الانجليزية أيضاً وهو يعني نظام القيادة. ورغم أن مصطلح قياد لا يصلح لأن يكون تعبيراً صادقاً للنظام نفسه. لماذا؟ ببساطة: لأن استعماله كان يختلف باختلاف المنطقة والسكان وحتى أهمية القبيلة أو الفرقة، فنجد أحياناً استعمال مصطلح أغا، الأمين أو الشيخ. ثم أن مصطلح قياد تطور عبر تاريخ الوجود الفرنسي في الجزائر، فبعد أن كان يعبر عن المسؤول عن عيون المياه، أبواب المدينة، القصبه أو الخيل... أو بكل بساطة عن رئيس الدوار (Chef) خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي كذلك، أصبح بعد 1867 يعني «موظف» إداري لإدارة المحلية داخل النظام البلدي كما سئى، أي مساعد أهلي (Adjoint-Indigène)؛ يساعد رئيس البلدية (المير) في ب.ص.ك ويساعد الحاكم الإداري في البلدية لمختلطة، ويساعد أيضاً الضابط العسكري في البلديات العسكرية. كان لهذا الموظف راتباً شهرياً ويخضع للتعين والسلم الإداري وفي حالة غياب غير مبرر أو تهاون في المهمة يتعرض إلى عقوبة الخصم من راتبه الشهري بل إلى الفصل والطرده النهائي. وعليه فإن مسألة استعمال المصطلحات التي تطرحها كتابة التاريخ مسألة هامة ومهمة وخطيرة في نفس الوقت. كيف علينا أن نترجم مصطلح عربي من الفرنسية إلى العربية: إنه أمر محير فعلاً.

الترجمة هنا بالرغم من أن الكلمة عربية أصيلة، تعني مصطلح باللغة العربية! استعماله الفرنسيون بقصد مثله مثل المصطلحات الأخرى كالخوجة، الدوار، الشاوش، الأغا والخليفة... للتعبير عن مناصب سياسية وإدارية كانت موجودة قبل مجيئهم الجزائر. لكنهم استعمالوا مثل هذا المصطلحات المحلية بعد أن أفرغوها من محتواها السياسي والثقافي الأصيل بهدف مغالطة الجزائريين ونشر الفكرة الخاطئة بأن القايد والشاوش والدوار... وغيرها ليست من اختراع الإدارة الاستعمارية بل كلها كانت موجودة من قبل!

أعتقد أن هذه الكتابة التاريخية مغالطة تاريخية مثيرة ينبغي التصدي لها و تصحيحها قبل فوات الآوان. إضافة أن «الأقلام» الشيوعية التي ألصقت نعوت كثيرة وعديدة حول القايد وجعلت منه الصورة الحقيقية للظلامية والإقطاع، وكأنه هو لوحده المسؤول عن الظلم الاستعماري في الجزائر. بالتأكيد، إنني هنا لا أدافع عن القايد، لكنني أحاول إيصال الفكرة التي مفادها أن نظام القيادية كان نظاماً سطحياً يخفي وراءه الحاكم الحقيقي و هو المكتب

العربي في الفترة الأولى ثم البلدية في الفترة التي بعدها، أقصد

2 - دور القياد في نظام القيادة.

لعبت شخصية القايد دورا حاسمًا في هذا النظام التعسفي كانت مهمته مساعدة المبعوثين الفرنسيين في جمع الضرائب وإحصاء السكان وتقديم المعلومات عن الغائبين. وكان على رأس كل دوار قايد. ولما عمم النظام المدني، أصبح الجزائريون يخضعون إداريا لسلطة البلديات بواسطة القياد وأعاونهم

و يذكر شارل ريشار المسؤول السابق عن التنظيم الإداري المحلي في تبسة ثم الأمين العام في الحكومة العامة: «... إن ممارسة التأثير على المسؤولين الأهالي مليئة بالمصاعب الجمة بالنظر إلى عجرفة بعضهم، وتحلى البعض الآخر بالمرآغة والتملص. وأن الوسيلة الوحيدة لقهركم في البداية، وتسييرهم بعد ذلك، بنوع من السهولة، هي معرفة مكامن خباياهم المحرجة لمركزهم، وإشعارهم خلال المحادثات السرية معهم بأن ما من شيء يؤدي إلى شنقهم بمنتهى البساطة كالكشف عنها. فإذا بالمتعجرفين منهم على غاية من المرونة لا نظير لها، وإذا بالمرآوغين لشعورهم بالخطر، مدركون بأن لا طائل من وراء سلوك ثعبان الماء»⁴.

يذكر أيضًا: «... فلنصل إلى المسؤولين الأهالي، ولنتحدث عن كيفية معاملتهم والتأثير فيهم، وهذا من ضمن المواضيع الهامة في السياسة المحلية. هناك سببان رئيسيان يضعان بالضرورة المسؤول الأهلي الذي هو في خدمتنا في وضع حرج (دقيق)؛ أولهما ظهوره بوجهين أحدهما مسيحي والآخر مسلم للحفاظ على التوازن بين الشعب وبيننا»⁵.

يذكر شارل ريشار أيضا أن القياد في بعض الجهات كانوا يتخذون من كل شيء وسيلة لكسب المال، فإذا طلبت السلطة العليا إحضار 200 بهيمة للسهرة، قام رئيس القبيلة باستحضار 300. ثم يعمد إلى تسريح 100 فيما بعد مقابل رشوة (أو هدية كما كان يفضل تسمتها). كما كان يتولى القايد مهمة توزيع أراضي القبيلة سنويا. لكنه يمنح القطع الأرضية إلى الذين يدفعون أحسن. وعند طلب الخيالة لمرافقة القوم أو لمأموريات أخرى يتوجه القائد إلى أكبر عدد، وينتهي اجبار الذين ليس لهم ما يدفعونه للسير معه.

عندما يقوم القايد بتقديم هدايا، فإن القبيلة هي التي تتولى دفع ثمنها، وعندما يتسلم القائد مكافآت من الضباط الفرنسيين فتعبر القبيلة عن مشاركتها فرحة القايد بالدفع. وإذا انعكس الأمر وعوقب تقدم كذلك بالدفع عوضا للخسارة التي لحقته. ويولد للقائد أولاد تتولى

القبيلة دفع الأفرح، و يفقد القايد أحد أعضاء أسرته تدفع القبيلة حق الدموع. وإذا تهيأ القايد لسفر طويل، كالحج مثلا، تقوم القبيلة بدفع نفقات الذهاب، وكذلك نفقات الإياب!

يذكر فليكس هوغونيت في مذكراته كقائد للمكتب العربي: « القايد يعرف ثلاثة وستين طريقة لكسب المال، لحاجته الدائمة إليه، ذلك أن يد هذا الأخير لا تنفك عن جس نبض قبيلته ليتحسس إلى أي حد يمكن إفراغها، فهو متملك لناصية هذا الفن الصعب القاضي بنتف دجاجة من غير كثرة صراخ⁶ ». هذه الأصناف كلها كانت تحت مراقبة دائمة وجدية، فالوثائق الإدارية الاستعمارية كانت تنعتها بأنها: « الشرارات الكامنة في الظل، قد تشعل النار بمجرد هبوب الريح⁷ ». إلى جانب القايد، أو الشيخ الذي كان يحتل هرم السلطة. هناك المساعدون أو ما كان يعرف بقياد فرق القبائل وكان هؤلاء يعرفون بأسماء تختلف باختلاف المناطق: الكبير أو الشيخ عند القبائل الرحل، الأمين في بلاد القبائل، وفي أغلب الأحيان نجد اسم-الواقف- المزوار- أو القداش، وهم موظفون غير رسميون، كانوا يعتمدون على مساعين مقابل إمتيازات بسيطة، وكان يعرف كل واحد باسم «العساس» ينقل الأخبار إلى القايد بسرعة فائقة ربما تفوق سرعة وسائل الإعلام في عصرنا الحالي⁸

الجدول رقم 1: بعض قياد المكاتب العربية العسكرية في عمالة وهران

إسم القبيلة	الفترة التاريخية 1870-1844	الفترة التاريخية 1892-1870
أولاد عبدالله	بوعزة ولد ويس	موسى بن سكران
أولاد سدي عبدلي	سي قدور ولد الغوتي	البشير ولد سي عبدلي
أولاد خليفة	محمد ولد بن عودة	جلول بولفداوي
أولاد رياح	قدور بوركبة	بلهادف ولد مراح
أولاد منصور	بوسطة	الشيخ الطيب
سواحلية	محمد العيودي	الشيخ بلخير
بني منير	الحاج الحسان	الحاج حامد البشير
بني خالد	بوعزة بن عمر	الحاج حامد بن عثمان
بني بوسعيد	لعرج بوريش	محمد بوعزة
ولهاسة	الحاج قادة بولنوار	احمد بن مروان

C.A.O.M/Aix, 2512/-Aghas et bachaghas (2006)

أشرت في السابق أن المناطق العسكرية في عمالة وهران لم تختفي إلا في سنة 1923.

وحافظت على بعض الجيوب منها لعريشة 1496 كلم مربع، ولالة مغنية 1229 كلم مربع. بالإضافة إلى منطقة أفلو 7710 كلم مربع.

في هذه المناطق المذكورة يمكن أن نتبع نشاط القيادة في مراقبتهم للسكان من جهة، والمتابعات الإدارية من خلال الوثائق لإدارة الاستعمارية من جهة أخرى بهدف إستنتاج الحقائق حول مسائل الشؤون المحلية. في يوم أول فبراير⁹ 1910، كتب الجنرال لبيوتي، قائد المقاطعة العسكرية لوهران إلى الحاكم العام شارل جونار يخبره عن طرد القائد الحاج الطاهر بن بدوي قائد أولاد سيدي منصور التابعة لمحنة أفلو. لم يكتفي لبيوتي بطرد القائد بل إقترح الحكم عليه بعقوبات شديدة من قبل مجلس تأسيسي عسكري. وكتب أيضاً أن: « هذا القائد رغم العقوبات والتحذيرات التي سلطت عليه، يبدو أنه لم يدرك أن عليه الطاعة والإخلاص. إن أسلوبه في التسيير لم يتغير، طبعه عنيف جداً ومتهاون، وهو بذلك قائد أهلي يتصف بالردائة». وألحق مع الرسالة قائمة العقوبات التي فرضت على القائد المخلوع. وهي كما جاءت في الجدول أسفله:

الجدول رقم 2: كشف العقوبات لقائد أولاد سيدي الناصر

ملحنة أفلو العسكرية

أسباب العقوبة المفروضة	مصدرها	المبلغ	تاريخ تسليط العقوبة
أطلق سراح أحد الأهلي المتهم في قضية إعتداء بالضرب العمدي ولم يرسله إلى المكتب العربي.	رئيس ملحنة أفلو العسكرية	50.00	شهر أوت 1903
تقديم رشوة لمترجم المكتب العربي قدرها 250 فرنك	نفسه	لا شيء	شهر أوت 1903
ذهب برفقة 20 من الخيالة إلى الخليفة لمعاتبته.	نفسه	لا شيء	شهر أوت 1903
تأخر في الإدلاء بمعلومات	نفسه	10.00	شهر أكتوبر 1903
تأخر في الإدلاء بمعلومات	نفسه	25.00	شهر مارس 1904
تهاون في مهمة جمع مخزون الحبوب	رئيس ملحنة أفلو العسكرية	20.00	شهر نوفمبر 1905

شهر فبراير 1906	25.00	نفسه	قدم معلومات خاطئة حول أرض زراعية
شهر جويلية 1907	30.00	نفسه	تغيب بدون سبب لإستدعاء
شهر ماي 1908	50.00	نفسه	تهاون في إحصاء الضرائب العربية/ عدد الأبقار أكثر من محصول الضرائب
شهر نوفمبر 1908	15.00	نفسه	لم يجيب على مراسلة خاصة بالحج

أرشيف ماوراء ابحار/ أكس بروفنس-فرنسا /G.G.A/Bureaux Arabes/Ora-
(nie./ Série.jj /2512/(61j

نلاحظ في هذا الجدول أنه رغم المخالفات والأخطاء المهنية الخطيرة التي ارتكبها القاييد الحاج الطهر الإدارة الاستعمارية لم تتخذ ضده إجراء الطرد إلا بعد عدّة سنوات من 1903-1910. والملاحظ كذلك أن كشف العقوبات هذا لا نلاحظ فيه المخالفات ضد السكان الجزائريين. الأمر الذي يدلنا أن الإدارة الاستعمارية كان لا يهتمها شؤون الجزائريين ومصالحهم الخاصة كالرشاوي التي كان يتلقاها القاييد وتلك المظالم في حق السكان. ويمكن متابعة وثائق الإدارة المحلية في نفس الموضوع لنجد مبادرة خطيرة قام بها سكان دوار الخميس (عرب مغنية كما جاء في العريضة) من قبيلة بني سنوس التابع للدائرة العسكرية لمغنية/مقاطعة وهران¹⁰. عندما وقع سكان القبيلة عريضة تعيين قاييد من بين شخصيات القبيلة مكان القاييد المتوفي. ولم يكتفي السكان بتوقيع العريضة بل أرسلوا تليغراف للحاكم العام¹¹. وكان رد فعل الإدارة المحلية في هذا الشأن عنيف جداً بحيث ألقى القبض على سبعة عشر شخصاً منهم وحكم عليهم بالسجن مدّة خمسة عشر يوماً و غرامة مالية قدرها خمسة وعشرون /فرنك¹².

ويبدو أن جذور هذه القضية وصلت إلى الحاكم العام الذي طلب المزيد من المعلومات من مقاطعة وهران التي أخبرته أن النقيب ملحق المكتب العربي لم يكتفي برفض مبادرة في تعيين عبد الرحمان ولد قدور كقاييد جديد، لأن ذلك يعتبر سابقة خطيرة في تاريخ الإدارة الاستعمارية بل فرض عليهم قاييد جديد و حذرهم بعدم تكرار هذه التجربة¹³.

من خلال ما تقدم يمكن أن نستنتج أن شخصية القاييد مهمة جداً في نظام المكاتب العربية. وهذا ما يفسر شروط الاختيار في هذا المنصب (أنظر الجدول). ذلك أن السلطة الفرنسية في البداية كانت تختار هؤلاء من ضمن العائلات الكبرى (الخيمة الكبيرة) حتى

تضمن خضوع السكان المحليين في عمالة وهران اشتهرت عائلة بن شيحة من عقب الليل (عين تموشنت)، بوعناني من سعيدة، أولاد القادي وأولاد بومدين من وهران، وفرندا، العربي من مينا (غليزان)، صحراوي من مستغانم، الحاج جلول من قبيلة فليته إضافة إلى أولاد صافي بن أحمد، وبنو يحي وأولاد سيدي الشيخ. مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أخذت تبتعد نسبياً عن فكرة توظيف العائلات الكبرى، بسبب إنهيار نفوذ هذه العائلات، سواء من الأجواد أو من المرابطين. وإذا تتبعنا وثائق المتابعة الإدارية نلاحظ هذه الحقيقة، حيث تحول القياد إلى ملاك كبار. والجدول التالي يبين ذلك :

الجدول رقم 3: شخصية قايد(ق) المكاتب العربية

في نظر لإدارة الاستعمارية

ملاحظات	%	القدرات المطلوبة
من أجل منع التمرد والانتفاضة	60%	الهيئة وسط السكان المحليين
خاصة في طريقة جرد وجمع الضرائب	35%	القدرات التنظيمية في التطبيق
تبليغ المعلومات (الإدارة لا تثق فيهم)	04%	الأمانة والصدق
الخوجة هو الذي كُلف بهذا الأمر	01%	التعلم (القراءة و الكتابة)

أصبح التعيين في هذا المنصب يخص قداماء المحاربين الذي خدموا السلطة الاستعمارية في مختلف الفرق العسكرية كالقوم والصابحية.

الجدول رقم 50: كشف الحالة العائلية والمهنية لقايد المكاتب العربية

قدور ابن الدين /قايد أولاد ميمون

الملاحظات	وضعية القايد قادور ابن الدين / أولاد ميمون
تاريخ ومكان الميلاد	- مولود عام 1861 في أولاد ميمون
التعيين في منصب القايد	- خليفة مساعد(1881)، قايد أولاد ميمون منذ 1897
الأصل العائلي	- ابن أغا جبل عمور جلول بن الدين - ابن عم الخليفة (المتوفي) الواقف بن الدين
الحالة العائلية العامة	- عدّة زوجات/على عاتقه 50 شخص (أولاد وخدام)
مستوى التعلم	- أمي - لا يعرف القراءة و لا الكتابة.
الأوسمة في الخدمة الإدارية	- وسام شرف النجمة السوداء يوم 1907/03/13
الأملك (باستثناء الأرض)	- 38أبقار-56أغنام-15 معزة-02 أحصنة سباق.

لم يكن مساعدي الإدارة المحلية كلهم من المتعلمين، بل أن الكثير منهم كان من الأميين (كما نلاحظ في كشف الحالة المهنية، ينوب عنهم في كتابة الرسائل الخوجات)، وهنا نتوقف نقد تلك الاستنتاجات التي توصلت إليها الباحثة كولات إستابلت التي درست ألفين وخمسة مائة رسالة كان يرسلها شيوخ وقياد النمامشة إلى ضباط المكاتب العربية في تبسة خلال الفترة 1879-1890 وهي محفوظة في أرشيف ما وراء البحار¹⁴.

لقد استنتجت أن هؤلاء بمرور الوقت قد استفادوا من «المهمة الحضارية» المزعومة من خلال ممارستهم لمهام الإدارة المحلية وادعت أن القيادة بعدما كانوا يحددون الوقت في رسائلهم بكلمة: اليوم-الأمس-غداً- بعد الظهر... تغيرت كتاباتهم من 1890، في مسألة استعمال التوقيت مثلاً نجد: على الساعة السابعة في رسالة 6 فبراير 1890. كما لاحظت اختفاء التاريخ الهجري ليتزك مكانه للتاريخ الميلادي بل واختفاء البسملة من الرسائل. واختفاء أيضاً الكلمة الاسمية والتعريفية: سي (سي قدور). وفي استنتاجات أخرى لاحظت الباحثة الفرنسية أن القيادة في مراسلاتهم تعلموا الكثير و من استعمالهم للمصطلحات الإدارية: كالفرقة، الدوار، المقاطعة، ال قسمة، الدائرة العسكرية... وغيرها. لكن في المقابل فقد لاحظت استعمال مصطلحات فرنسية في كتاباتهم مثل :

شاف (chef)، بير و (bureau) نمير و (numéro)، ر بور (rapport) دوسي (dossier)، بلاصا (place)، بون شوسي. وغيرها. كان من الممكن أن يترجمها القائد تقول الباحثة كولات إستابلت لكن يظهر أنها «ظاهرة تاريخية حيث أصبح القائد أو الخوجة يفضل كتابتها كما ينطقها»¹⁵.

لا يمكن المرور على هذه الكتابات الخطيرة التي بطريقة أو أخرى ترجعنا إلى ما أسماه نواب الغرفة البرلمانية في فرنسا «بالاستعمار الإيجابي» في قانون 23 فبراير 2005. أما المؤرخ الفرنسي ياكونو، الذي اشتهر بدراسته الأرشيفية الموثقة للمكاتب العربية قال أن: «المكتب العربي هو ذلك الجسر الذي يربط بين السلطة الفرنسية والسكان الأهلي في هذا البلد»¹⁶.

لكن هل يكفي تعريف هذه المكاتب لكشف السياسة الإدارية المحلية لاستعمارية في الجزائر؟ والتي هي موضوعنا الرئيسي، لا أعقد ذلك، بل علينا أن ندرك أولاً بأن «الضباط» الذين كانوا يحسنون اللغة العربية كانوا أول من فكر في مثل هذا التنظيم. حيث أنشأ أول مكتب عربي يوم 4 مارس 1833، يضم مجموعة من «المترجمين»¹⁷، هدفه نشر الدعاية الاستعمارية وسط القبائل والفرق والاتصال بزعماء السكان المحليين، عندما تولى الجنرال أفيزارد (-Aviz-

(ard) شؤون السلطة. وكان صائبًا لما عيّن على رأس هذا المكتب الكابتان «لاموريسيار» نتيجة لمعرفته الواسعة للغة العربية. وعندئذ تكلف هذا الضابط بمصلحة خاصة بالسكان الأصليين¹⁸ فقط أطلق عليها عام 1837 اسم « مصلحة الشؤون العربية »¹⁹. وكان على السلطة العسكرية انتظار تعيين الجنرال بيجو في منصب الحاكم العام سنة 1840، الذي لم يكتفي بفرض أسلوبه العسكري فحسب، بل فرض أيضا منهجه في النظم لإدارية بالجزائر²⁰. حيث في شهر فيفري 1844 صدر قرار إنشاء وظيفة «مدير الشؤون العربية» لإدارة المصلحة السابقة تحت سلطة الحاكم الأعلى في كل دائرة وناحية. وبذلك برزت «المكاتب العربية»، وأنيط بعهدتها تنظيم شرطة «العرب»، والضرائب والغرامات، وإدارة السكان تحت إشراف ومراقبة حكام المقاطعات الثلاثة وضباطها، ومساعدة الرؤساء المحليين الخاضعين لهم. الذين حصرت مهمتهم الأساسية في جمع الغرامات والضرائب للدولة، ومراقبة السكان من الناحية السياسية.

_ 3 - موقف الحركة الوطنية والثورة من القياد.

لقد وضعت السلطة الاستعمارية أغلبية السكان الجزائريين داخل نظام إداري محلي تعسفي ظالم، وأطلقت يد الحكام الإداريين، القياد ومساعدتهم وشيوخ البلديات في التصرف السكان الجزائريين.

أ - الحركة المطالبة من قضية إدارية إلى قضية سياسية.

الوفد المؤتمر الإسلامي كان من بين ستة عشر مندوبًا، أربعة نواب وهرانين: بن عودة بشطارزي مستشار بلدي وعام لوهران ورئيس فدرالية نواب عمالة وهران و محمد لالوت مستشار بلدي لسيد بلعباس ونائب رئيس الفدرالية. بالإضافة إلى بوكلي حسان عميد المحامين في تلمسان ومستشار بلدي سابق. وبوصالح عبد السلام هو كذلك مستشار بلدي سابق في تلمسان.

ب- معارضة الشيوعيين لإدارة المحلية بإيعاز فرنسي (طكتيك).

عند زيارة أندري مارتى في فبراير 1934 للغرب الجزائري، وجه حملة من انتقادات إلى الجرائد الشيوعية في الجزائر لتركيزهم على جوانب الاقتصادية والمهنية عوض التنديد بالجرائم الاستعمارية، الإدارية منها خاصة. وهذا ما يفسر التفات الشيوعيين إلى المظالم الفاحشة التي ظلت ترتكبها الإدارة المحلية من قياد وخوجات و حراس الغابات ضد الجزائريين المغلوبين على أمرهم.

ج - استقلالية البلديات كان من المطالب الأساسية في برنامج الوطنيين.

د - موقف الثورة من الخونة والحركات المناوئة: لقد وجد القياذ أنفسهم أمام خيارين لا ثالث لهم. إما يستقيلوا من مناصبهم ويلتحقوا بالثورة إما أن ينظموا إلى الجيش الفرنسي و الإلحاق هكذا بالخونة.

لقد كانت سنة 1955 سنة حاسمة في صراع الإدارة الاستعمارية مع الثورة الجزائرية حين كان لا بد عليها من إلغاء النظام البلدي و تأسيس نظام مكاتب لاصاص التي أنشأت بدورها فرقة الحركة التي ضمت عدد كبير من القياذ ومن أشهرهم الباشأغا- بوعلام- وعدد قليل منهم فضل موقف الشجاعة والإلتحاق بالثورة كقياذ بلعربي في منطقة سيدي بلعباس.

الهوامش

- 1- C.A.O.M/AIX,Lettre de Bugeaud à Soult 1 nov 1843.
- 2- COLLOT,(claud)les Institutions Algériennes , p 33.
- AGERON (Ch-Robert,), Les Algériens Musulmans et la France, 1871-1919, tome 1 ,Puf,paris,1968,p 131.
- 3- AZZA (AEK) : MOSTAPHA BENBRAHIM,barde de l'oranaï et chanteur des bény-ameur, éd sned,alger,1979.
- 4- Idem.
- 5- Id,, p 37.
- 6- Hugonnet (F): (Ancien Capitaine-Chef d'un bureau Arabe), Souvenirs d'un Chef de bureau Arabe, Paris 1858, pp 70-73.
- 7- Richard (Charles), Du gouvernement Arabe, op- cit., p 42.
.C.A.O.M/Aix,Sous série 19 H/307/309 -Aghas et bachaghas avant 1918 8-9GGA,lettre n°74 du 01/02/1910.
- 10 -C.A.O.M/AIX,Lettre du cabinet du GGA, avec traduction analytique,du 03 juin 1912.
- 11- Rap ,du 11 juin 1912.
- 12-Ibid ,Archives/GGA, traduction analytique.
- 13- Ibid, Lettre du cabinet du GGA.
- 14-C.A.O.M /Relevé de notes/Chef indigène,Kaddour Beneddine,2512-Caid ouled mimoune ,le 30 dec 1912.
- 15- ESTABLET (Colette) : Etre Caïd dans l'Algérie coloniale, éd CNRS, paris, ,p 221-230.
- 16- YACONO (Xavier) : Les bureaux Arabes et l'évolution des genres de vie indigènes dans le tell Algérien (Dahra, Chelif, Oursenis, Sersou), édition larose, Paris, 1953.
- 17- ESTABLET), Op-Cit , p 11.

18- ISMAËL HAMET : Les Musulmans français du nord de l'Afrique Librairie Armand colin, paris, 1906 ,p 126.

19- YACONO (Xavier) : Les bureaux Arabes et l'évolution des genres de vie indigènes dans l'ouest Du tell Algérois, Paris, édition la rose, 1953, p 10.

20- Compte-rendu et Observations du maréchal gouverneur général [Bugeaud] sur le projet de colonisation présenté pour la province d'Oran par M. le lieutenant général de La Moricière. Alger, Impr. du gouvernement, 1847. (In bibliothèque C.D.H.A)